شهريات

بقلم رئيس التحرير

مع قصتين نموذجيتين

من قراءاتي الاخيرة مجموعتان قصصيتان ، أولاهما « في دوامة الحب والكراهية » للكاتبة العراقية ديزي الامير التي تتميز أقاصيصها بجو خاص هو نسيج وحده في القصة العربية القصيرة . يقوم على تصوير نفسية المرأة العربية المحبطة في بيئة عدوانية . والمجموعة الثانية للكاتب السوري ياسين رفاعية وعنوانها «الرجال الخطرون » .

وأود هنا أن أتوقف عند قصة واحدة في كل من المجموعتين ، أعتبرها « نموذجية » ومعبرة عن « هموم » كل من الكاتبين .

« مسرحية اكسنير الشباب » ، هي محصلة الرؤية الكاملة التي تقود ديزي الامير في فنها القصصي ، وان كان يصعب تجميع خيوطها وفهمها فهما صحيحا اذا لم يستعن القاريء بقراءة قصص أخرى في المجموعة .

انها بادىء ذي بدء ، قصة رمزية تستعير معانيها الرئيسية من رؤية الحرب اللبنانية ، هذه الحرب التي تفرش المؤلفة كثيرا من فصولها ومظاهرها في المجموعة . واذن ، فان مسرح هذه القصة هو لبنان ، والمسرحية حرب لبنان . وحين تقول الكاتبة وهي تصف المسرح ان عليه « غرفة مختبر مملوءة بأنابيب تتصل ببعضها ... » فهي تقصد الى أن الجميع أرادوا أن يجعلوا من لبنان « مختبرا » لتجاربهم السياسية والعسكرية ، والانابيب هي وسائل هذه التجارب ، وتفاعل السوائل التي تتنقل بين الانابيب هو الذي ينتج هذه العجائب التي تشوه الحقائق وتغيرها وتسوقها خارج مسارها .

وجو الرعب الذي ترمي القصة الى تصويره ، كلوحة عن حرب لبنان ، يتخذ ملمحه الاول ببدء المسرحية . فبدلا من الدقات المعروفة التي تستهل بها المسرحيات على خشبة المسرح ، تأتي « طلقات رصاص من مسدسات وبنادق عرف بعض الحضور أنواعها ... » . وهذا يعني قبل كل شيء تشويه الحقائق ، هذا التشويه الذي يعبر عنه بعض حضور المسرحية بأقوالهم المتعاقبة : « أظنهم أخطأوا في طبع البرنامج ... » ، « هذه ليست المسرحية التي ننتظر ... » ، « الذنب ذنب الملقن الذي غير الحوار . » ، « مصمم الازياء الذي ألبس الناس ثيابا غير ثيابهم . »

وتتوالى بعد ذلك أحداث صغيرة تمثل لهذا التشويه : عبلة التي تتحول الى جولييت وعنترة الذي يبتر يد جولييت عقابا لها على أنها سرقت قلبه ، وليلى التي تتحول الى ديدمونة ، وأنطونيو الذي ينادي نفسه بدلا من كليوباترا ، والرجل الذي يطلب من مدير المسرح تسجيل صوت حركات عينيه ، وموزعة البرامج التي تركب دبابة تنطلق منها النيران ، وبائع السلاح الذي ينادي على صحف للبيع (لنلاحظ هنا مغزى الشبه بين السلاح والصحافة) والاسلحة التي تعانق أكتاف الممثلين ..

وهكذا تحمل هذه القصة رموزا كثيرة من الحرب اللبنانية التي كانت مختبرا للجميع ، مواطنين وأجانب، لبنانيين وعربا ...

وليس من شك في أن ديزي الامير قد كتبت هنا قصة جيدة من حيث الفن القصصي ، ووظفت كل حدث صغير في وظيفته المرصود لها في السياق العام ، وان لم تلتزم أحيانا صرامة قانون الضرورة القصصي الذي يريد لكل تفصيل من تفاصيل القصة أن يوجه في خدمة الهدف العام . فاذا كانت تريد بتصوير المتسولين الواقفين أمام باب المسرح يمدون أيديهم يطلبون العون ، ثم بتصوير السيارات الفارهة التي يفتح السائقون أبوابهم وينحنون خاضعين لراكبيها ، وبتصوير النساء العاريات الاذرع اللواتي يغطيهن الفراء ـ اذا أرادت بتصوير ذلك كله ابراز التناقض الاجتماعي الذي يحكم الناس في هذا البلد، وهو ما ينسجم مع غاية القصة في آخر المطاف ، فان من التفاصيل التي لا تخدم هذه الغاية ، فتبدو نافلة في القصة ، تصويرها للمقاعد « المحجوزة سلفا ، وأخرى ظن أصحابها أنها محجوزة لهم وأخرى حجزت الان ، وقد يتغير المقعد فيتقدم الى الصفوف الامامية وقد يتأخر حسب مزاج بائع التذاكر .. » ان أقصى ما تريده الكاتبة هنا هو فضح « مزاج » بائع التذاكر ، وهذا ما لا علاقة له بغاية القصة .

والان ، لا بد من التساؤل حول شخصية مدير المختبر ، هذا الذي كان « يمثل الشباب بكل مظاهره المحببة ، يبتسم والسرور يطفح على وجهه وتبرز أسنانه البيضاء اللامعة المصفوفة ، يرفع يدا فتندفع الابخرة الملونة وينزلها فتهبط » ان مدير المختبر هذا يصاب

بالارتباك والاضطراب في أثناء المسرحية ، ثم يفقد أسنانه وتصطك مفاصله ويتحول الى شيخ عجوز ...

انني أتساءل هنا : الى من يرمز مدير المختبر هذا ؟ هل تقصد به المؤلفة يد الاستعمار الاجنبي الذي يقف وراء هذه التجارب في الحرب اللبنانية، وتتنبأ بأنه سيفشل في النهاية ويفقد شبابه ويصير الى العجز ؟

اذا لم يكن هذا ما تقصد اليه ، فقد فاتنا مغزاه . أما اذا كان هذا هو الرمز ، فان قصة ديزي الامير تختلف عن روح معظم أقاصيصها الاخرى ، وهو ما يعدل في الحكم التقييمي الذي يخرج به قارىء مجموعتها هذه. فالواقع ان هذه الاقاصيص ذات رؤية واحدة ، هي ادانة الحرب اللبنانية بكل وجوهها ، ومن غير تمييز للمشاركين فيها ، وتبني وصفها بأنها حرب « قذرة » ، وان جميع الذين خاضوها لصوص لا قضية لهم ... وقد كنت وما أزال على خلاف مع الصديقة ديزي حول هذه الرؤية . لان تصرفات بعض الافراد والمجموعات التي تشوه حقيقة الصراع ، لا تبرر اطلاقا الاعتقاد بأن الذين استشهدوا وما يزالون يستشهدون ، من اللبنانيين والفلسطينيين ، انما كانوا مخدوعين ، وكان استشهادهم مجانيا .

أقول ان رمز مدير المختبر ، يكون رمزا ايجابيا في المصير الذي يؤول اليه ، لانه يعني أنه أخفق في خطته ومؤامراته ، وان الذين فشلوا هذه المؤامرة هم المقاتلون الشرفاء في الحرب اللبنانية ، وبهذا تكون ديزي الامير ، في هذه القصة على الاقل ، ملتزمة هي أيضا بقضية الشعب اللبناني الحقيقية ، وهي القضية التي لا تنفصل عن القضية الفلسطينية .

* * *

أما « صرصار » ياسين رفاعية فهو الانسان الذي تسحقه أنظمة القمع ، كما سحقت قدم الشرطي الحشرة.

والواقع ان هذا الموضوع هو الموضوع الاثير للكاتب في معظم قصص مجموعة «الرجال الخطرون»، وهو الذي عالجه قبله زكريا تامر في مجاميعه السابقة ولا سيما « النمور في اليوم العاشر » ، كما ان الكاتب الفرنسي هنري شاريير قد أورد في روايته « فراشة » مشهدا قريبا من مشهد « الصرصار » في السجن .

وميزة هذه الاقصوصة بالذات شفافية مرهفة تملك طاقة ايحائية كبيرة يغنيها عن كل تعليق أو تقرير أو تدخل . كانت نفسية بطل القصة ، في احساسه بالظلم والانسحاق ، كتلة من الارهاف تتنبه لكل حركة ونأمة وصوت . من أجل ذلك ، دخل الصرصار حلبة الصراع بطلا رئيسيا يسقط عليه السجين كل مشاعره وخيالاته ، ويقيم معه حوارا هو الصمت البالغ الفصاحة . حتى أنه يتخيله وهو يتكلم ويجيب على أسئلته ، فيصور عبره كل انعكاساته النفسية . ولكي يدين الكاتب القمع ، يكفيه أن يوحي بأن العلاقة مع الحشرات والحيوانات هي أكثر انسانية من العلاقة مع بعض البشر . وهذا الود الذي يقوم بين السجين والصرصار مشحون بالدلالة المأساوية المرتبطة بالارهاب .

وقد صور ياسين رفاعية في قصتي « المطاردة » و « لماذا » من المجموعة نفسها هلوسة حادة تنتاب البطلين بفعل الذعر الشديد الذي يتملكهما من التعقب والملاحقة ، والرعب من وقوعهما ضحيتين لخطأ متعمد أو مجاني .

وعلى صعيد التكنيك القصصي ، كانت خاتمة القصة بارعة حقا ، وهي مما يسمى « الخاتمة المعلقة » التي تترك القارىء على تعطشه لمعرفة مصير يطرحه الكاتب . فنحن لا نستطيع الا أن نتساءل : هل أطلق سراح السجين أم سيق الى الاعدام ؟ لقد تفادى رفاعية الاجابة على هذا السؤال لان غايته ليست هذه ، فالقصة هي قصة الصرصار أولا ، وربما استطاع القارىء أن يستنتج من سحق الحشرة رمزا لامكانية سحق الانسان . هذا أمر ثانوي . فالمهم ان الكاتب بلغ ما يريد : ادانة للقمع . وهكذا يلتزم ياسين رفاعية ، هو أيضا ، موقف المثقفين الاحرار الذين لا ترهبهم فاشية الانظمة العربية .

سهيل ادريس

صدر حديثا

الأفواه

مجموعة قصص لـ

عبد الرحمن الربيعي

منشورات دار الآداب